

الكتابة اللسانية وإشكالية التلقي.

Linguistic writing and the problem of reception

عثمانية أحلام@univ-guelma.dz

جامعة 8 ماي 1945 قالمة

حسني نهاد@mail.com

جامعة 8 ماي 1948 قالمة

تاريخ النشر: 2021/01/01

تاريخ القبول: 2020 /12/05

تاريخ الاستلام: 2020/12/01

ملخص:

تُعَدُّ اللسانيات التمهيدية من بين القضايا التي شغلت بال الكثيرين وأسالت الحبر للنقاد بارزين، وأضحت من أكثر القضايا النقدية انتشارا، ورواجا، ونفوذا، كونها ترتبط بواقع الثقافة العربية الحديثة، وما أفرزته من نظريات لسانية جديدة بمفاهيمها، وتوجهاتها ومناهجها المختلفة. وباستقراء راهن اللسانيات في المجال التداولي العربي، يكشف عن أن اللسانيات العربية لم تبلغ بعد مستوى النضج الذي بلغته نظريتها في الغرب، على الرغم من مرور ردها من الزمن على اتصال ثقافتنا باللسانيات، وعلى الرغم كذلك من وجود إرهاصات لسانية عربية لها قيمتها ومنزلتها. كانت من أهم الإشكالات التي يقف عندها الباحث العربي، مدى ارتباط المناهج المعاصرة باللسانيات التمهيدية، وإشكالية تلقيها بعدما أثارت زوبعة اللسانيات المعاصرة الساحة النقدية، واكتسحت مجالات عديدة كان لها الفضل في بروز نظريات حديثة اتسمت بقراءات خاصة، ما يحيل بنا إلى التساؤل الآتي: هل نجحت اللسانيات التمهيدية العربية في تقريب اللسانيات إلى القارئ العربي؟ كلمات مفتاحية: اللسانيات، التلقي، اللسانيات التمهيدية، القارئ العربي.

Abstract:

Introductory Linguistics are among the prominent issues discussed by linguistics, in addition to them being widespread, popular, and influential critical issues, as it is linked to the realities of modern Arab culture, and what the latter produced of new linguistic theories and concepts, and their different orientations and approaches. Through extrapolating the linguistics stakes in the arabic pragmatics field, it is revealed that Arabic linguistics have not yet reached the level of maturity of western theories, despite the fact that a long period of time has

passed since the connection with our culture with linguistics has been established, and in spite of the indicators of Arab linguistics that have always held its value and prestige.

One of the most important problems faced by the Arab researcher was the extent to which contemporary curricula relate to introductory linguistics, in addition to the problem of its reception after the whirlwind of contemporary linguistics aroused the critical arena, and swept over many areas that had the merit of the emergence of modern theories that were characterized by special readings. Which brings us to the following question Has introductory Arabic linguistics succeeded in bringing linguistics closer to the Arab reader ?

Keywords : linguistics, receptivity, introductory linguistics, the Arabic reader.

مقدمة:

تُشكل اللغة في بُعديها المنطوق والمكتوب أهم وسائل الاتصال الإنساني، ومن أجل ذلك حظيت بنصيب وافٍ من الدراسة منذ القديم، ومن أحدث الأطروحات التي عُنيت بتوصيف وسائل الاتصال اللساني: الأطروحة اللسانية التمهيدية في تحليلاتها النقدية المختلفة، باعتبار أن اللسانيات على اختلاف نماذجها لها أدواراً مهمّة في توجيه النشاط الاجتماعي في الحياة الإنسانية فيتم اعداد الأحداث الساخنة من خلال نصوص منتجة وفق أهداف معينة مخطط لها مسبقاً، كما أنّ للنصوص اللسانية دور في تفعيل القيم الثقافية، والأخلاقية، وتغيير المواقف الفردية والجمعية.

واللسانيات التمهيدية كغيرها من العلوم، إذ استطاعت أن تلج بالمتلقي نحو عوالم خفية، بعدما قامت نظرية "القراءة والتلقي" بتمجيد المتلقي ففتحت له الباب على مصراعيه للتعامل مع النصوص الأدبية بشتى التأويلات وكافة التوقعات التي قد تكون راسخة في ذهنه، فحضي هذا الأخير بمكانة خاصة في الدراسات الحديثة والمعاصرة بعد أن كان مهمشاً، بين عناصر العملية الإبداعية.

من هذا المنطلق برز المتلقي كأحد العناصر الفاعلة في العمل الأدبي، فأضفى خبراته وتجاربه، وثقافته على النصوص بشتى أنواعها، وتنوع مضامينها، ما جعل

اللسانيات التمهيدية تنحو منحى تأويليًا حديقًا صوب عوالم جديدة، كان فيها المتلقي مركز اشعاع لجلّ النصوص.

1- مصطلح التلقي:

أ. لغة:

ينبثق الأصل اللغوي للفظّة التلقي من الجذر "ل، ق، ي" أي لقي فُلاَنًا ولاقاه وتلقاه لقيانا وملاقاة أي صادفه وقابله واستقبله فالمتلقي المستقبل¹، وتعرض الأزهري في معجمه تهذيب اللغة إلى نفس المفهوم بقوله: "والتلقي هو الاستقبال"²، ومنه قوله تعالى: "وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ"³.

كمّا نجد مصطلح "لقي" في معجم أساس البلاغة للزمخشري يحمل الدلالة نفسها بمعنى الاستقبال، يقول: "لَقِيَ رَجُلٌ مَلَقُوا، به لقوة وقد لقي ولقيته لقاءً ولقيًا ولقيّ بوزن هدى، ولأقوته بين الرجلين، وبين طرفي القضيب ولوقيّ بينهما، وألقيتُ إلى خيرًا: اصطنعتُه عندي، وألقيّ إلى سمعك"⁴ ومعنى هذا اصطناع الخير والاستقبال له.

وجاءت في معجم العين، الكلمة بمعنى الأخذ والتلقي، إذ ورد في معجمه مايلي: "لَقَا (لَقُوا): اللّقة داء يأخذ في الوجه يعوج منه الشرق ورجل ملقو لقيّ اللّقة واللّقة: العقاب السريعة السير، والرجل يلقي الكلام والقراءة أي يلقيه، وتلقيت الكلام منه، أخذته عنه"⁵.

والمأمل لهذه المفاهيم المعجمية يجد أن مصطلح التلقي ارتبط بالاستقبال والتلقي والتعلم، والإلقاء: "وأنّ هذه الاستعمالات تجتمع في الأخذ من جانب الاستفادة المعرفية والعلمية " فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ"، فالكلمة هي الجوهر الثمين أو السر الذي آخذه آدم، وكان له شأن في حياة بني البشر إنّه الوسيلة التي سيتم بها التواصل ويتأسس بها صرح الوجود"⁶.

اصطلاحًا:

بعد الزوبعة التي أثارها المناهج الحديثة، وبعد قصور المناهج السابقة عن الإحاطة بكل تساؤلات هذا النص، التي تفرض تجاوز الاشتغال على المؤلف، وتجاوز النص ذاته،

إلى الاشتغال على المؤلف، وتجاوز النص في ذاته إلى الاشتغال على القارئ بوصفه متلقيه الأول، ولأجل ذلك ظهرت نظرية القراءة والتلقي.

برزت نظرية القراءة والتلقي، نتيجة جدل فكري عميق حول مقارنة النص اللساني، بعدما أثبتت المناهج النقدية عجزها عن استيعاب سيرورة النصوص الإبداعية وتطورها، هذه السيرورة هي التي فرضت مرحلة نقدية جديدة تُؤسس معالمها هذه النظرية النقدية الحديثة، ذلك أن المسار النقدي الحديث قد انطوى " على ثلاث لحظات: لحظة المؤلف وتمثلت في نقد القرن التاسع عشر (التاريخي، النفسي، الاجتماعي)، ثم لحظة (القارئ) أو (المتلقي) كما في اتجاهات ما بعد البنيوية، ولاسيما نظرية التلقي في السبعينيات منه"⁷.

يذهب كثير من الباحثين أن مصطلح التلقي لم يتربع على ركح الدراسات " النظرية والنقدية العربية

المعاصرة"⁸، إلا في وقت متأخر وكان ياوس من الرواد الذين أخذوا بناصية هذا المصطلح في كتابه: معنى المصطلح المشكل لتسمية نظريته الجديدة "بأن مفهوم التلقي: هنا معنى مزدوج يشمل الاستقبال أو التملك والتبادل معاً"⁹.

اكتسب مصطلح التلقي بعده التداولي في بعض الأنظمة الثقافية منه من تداوله بمصطلح الاستقبال، بيد أن إشكالية تعدد هذا المصطلح وإشكالية تلقيه يرجع إلى أسباب عديدة أهمها الترجمة، واختلاف المرجعيات وتعدد المشارب المعرفية لهذه النظرية.

وبما أن نظرية التلقي وليدة النقد الغربي، كان لإشكالية تلقيه معضلة نقدية في الدراسات العربية، فاختلف تداوله من بيئة لأخرى، وباستقراء المعاجم الأجنبية والفرنسية نجدها تتفق على أن " التلقي هو الاستقبال والترحاب والاحتفال"¹⁰، وانتهالت مصطلحات جديدة من قبل الباحثين، فنجد محمد مبارك يُشير إلى أن مصطلحا "الاستقبال والاستجابة مفهومان لصيقان بنظرية التلقي ومن الصعب فصل أحدهما عن الآخر"¹¹.

كما يتلاقى مصطلحا الإنتاج والتلقي بمظهر الأخوين أيزر، وياوس، حيث اهتم الأول بالتأثير أي الإنتاج في حين اقتصر الثاني على التلقي، ولهذا "تم اعتبارهما منذ عهد طويل ابنين غير شرعيين"¹²

وفي السياق نفسه يستوقفنا مصطلح (الاتصال) الذي يُعَدُّ نظرية بحالها، حيث أكد الدارسون أن هذا المصطلح "يشمل عمليات الابداع ويتسع لها سواها لذلك عدّ نقاد نظرية التلقي ومؤرخوها، نظرية الاتصال أنموذجاً أشمل وأعظم لنظرية التلقي"¹³، ومن ذلك ما ذهب إليه نبيلة إبراهيم التي استعملت مصطلح التأثير والاتصال، الحجة أنّ القراءة تتم "لا من حيث إنّ النص قد استقبل، بل من حيث إنه قد أثر في القارئ وتأثر به على حدّ السواء، ولهذا فإنّ أصحاب هذه النظرية لا يسمون نظريتهم نظرية الاستقبال، بل يسمونها نظرية التأثير والاتصال"¹⁴.

إن ما ذهب إليه صالح زامل لم يكن بمنأى عن الآراء السابقة فهو يرى أن "التلقي نشاط له صلة بنظرية الاتصال وهي نظرية أكثر شمولاً وقد ظهرت منذ منتصف القرن العشرين في ألمانيا وتقوم هذه النظرية على أن الاتصال وسيلة التفاعل الأساسية بين الأفراد والجماعات للتحكم بالأنظمة المادية والرمزية التي تتعامل فيما بينها من خلالها"¹⁵. وقد جمع شوقي "مفهوم التأثير ومفهوم التلقي ضمن مفهوم أشمل هو مفهوم جمالية التلقي"¹⁶

ومن ثمة اكتسب مصطلح التلقي تداخلاً ثقافياً مع عديد من المصطلحات ممّا ولد أزمة مصطلح، وهي أزمة لازمت النقد العربي المعاصر بشكل عام.

2- اللسانيات العربية:

ارتبطت اللسانيات العربية الحديثة، بالبحث اللساني الغربي الحديث، وقد "حددت نشأتها بعودة الباحثين المصريين من الجامعات الأوروبية حيث درسوا المناهج اللسانية الغربية الحديثة، وبدؤوا نشر بحوثهم اللسانية منذ ذلك التاريخ"¹⁷، ومن هنا قابل الوضع المتميز للسانيات العامة في تطوراتها المختلفة ونماذجها المتعددة في أوروبا وأمريكا وضعاً مغايراً تماماً في الثقافة العربية الحديثة، فهي تُعتبر مادة مستوردة مضادة

للتحليل النحوي العربي القديم، لذلك فإن وجودها في حضان الثقافة العربية يُحرك بين دعاة القديم والحديث ضمناً صراعاً حضارياً لا يمكن إغفاله أو الاستهانة به¹⁸

لا شك أن أصعب الأمور بداياتها، وكذلك كانت بداية الكتابات اللسانية العربية الحديثة "لقد كان اللسانيون العرب يتوجسون ممّا قد يُجاهون به من ردود أفعال مناهضة لنشاطهم، سواء من المنشغلين باللغة أو من الجهات الجامعية والمؤسسات العلمية التي ترعى النشاط اللغوي، فقد استشعروا صعوبة تقديم المناهج اللسانية الحديثة للقارئ العربي، ولم تكن الصعوبة في عملية عرض هذه المناهج بقدر ما ارتبطت بإقناع الآخر بجدوى هذه العملية"¹⁹

وهذا الأمر أشار إليه الباحث مصطفى غلفان حين قال: "إنّ دخول فكر لغوي غربي إلى أحضان ثقافة تعتبر نفسها ثقافة لغوية بامتياز كما هو الشأن بالنسبة إلى الثقافة العربية، أدى إلى طرح جملة من التساؤلات حول فائدة اللسانيات، بل إلى خلق جبهة رفض ضداً على هذا "الفكر الدخيل" يتساءل أحد الباحثين العرب: لأي شيء نستورد منهجاً غريباً في دراسة اللغة ولنا منهجنا الخاص الأصيل الذي أثبت ألف عام أو يزيد صلاحيته"²⁰ صحيح أن اللسانيات منهج مستورد، هي كسائر مناهج المعرفة الإنسانية الحديثة الوافدة علينا من الغرب تطرح على اللسانيات العربية الحديثة إشكالية إضافية ليس من السهل تجاوزها، وهي علاقة الثقافة اللغوية العربية بنظيرتها المعاصرة.

أدى سوء فهم العلاقة بين اللغة العربية (كمعطيات) والنماذج اللسانية المقترحة في اللسانيات لرصدها وتحليلها إلى إصدار جملة من الأحكام غير السليمة حول طبيعة اللسانيات، وترويج كثير من المغالطات المنهجية التي لا تمت بصلة للبحث اللساني والعلمي على حدّ سواء،

إشكالات التلقي في الكتابة اللسانية التمهيدية:

الكتابة التمهيدية (أو التيسيرية) طريقة في التأليف لا يُمكن لأي علم أن يذيع وينتشر بدونها، لذلك من الطبيعي أن يُشكّل هذا النوع من التأليف أحد الاهتمامات

الأساسية لنشر العلوم وتقريبها إلى القُراء، فهل نجحت الكتابة اللسانية التمهيدية العربية في تقريب اللسانيات إلى القارئ العربي؟

في بادئ ذي بدء: تُعرّف اللسانيات في بعض الكتابات اللسانية التمهيدية بالنظر إلى أهميتها والمكانة التي تسموها بين العلوم الإنسانية فقد "أصبحت اللسانيات تحتل موقعا مركزيا داخل العلوم الإنسانية الشيء الذي جعلها تفرض عليها نموذجا التحليلي ومعجمها المفهومي"²¹، وتفسر تلك الأهمية بالإقبال المتزايد عليها حيث اكتسبت قضايا علم اللغة الحديث رواجًا في الجامعات العربية وأقبل كثير من الدارسين على متابعتها والتخصص فيها، "من حيث كانت مخرجًا من الحائط المسدود الذي وقفت عنده دراسات النحو والصرف واللغة من بعيد"²².

على الرغم من المساهمة المعتبرة للسانيات التمهيدية في تقديم البحث اللساني العربي في بعض مناحيه، فإنها لم تسلم في نظر الباحثين من بعض الانزلاقات التي يمكن أن نلخصها فيما يلي²³:

- الارتباك في تحديد مجال البحث اللساني: ويرجع هذا الارتباك والغموض إلى طبيعة المصادر التي تُقدمها بعض الكتابات التمهيدية، وهي مصادر عامة بعيدة نسبيا عن اللسانيات بمعناها الدقيق العلمي. كما يفسر هذا الارتباك بعدم تحديد موضوع علم اللغة، تحديد دقيقًا، فالمتتبع لموضوعات الكتابة اللسانية التمهيدية، وتحليلها يلاحظ أنها حضرت مجالات علم اللغة في نطاقه الواسع أي دراسة اللغة في إطارها العام تاريخيًا، حضاريًا، واجتماعيًا، ونفسيًا ولم تهتم بالمبادئ اللسانية إلا في حالات نادرة.

- غياب تقنيات التحليل اللساني: يُعدّ الجانب التقني من أهم الجوانب الأساسية التي تتوسل بها اللسانيات في فرض منهجية علمية التحليل بيد أن الأمر في الكتابة اللسانية التمهيدية ليس على هذه الشاكلة "إن من النادر وجود كتابة تعرض التقنية المتبعة في التحليل اللساني، أي كل ما يتوسل بواسطة المحلل اللساني في وصف الظواهر اللغوية من أدوات تقنية وطرق إجرائية في التحليل المباشر للغة،

على الرّغم من أن الكتابات التمهيدية العربية في منحى وصفي بالأساس، فإنّها لم تعمل على تقديم المنهجية المتبعة في هذا الاتجاه من الدرس اللساني²⁴.

إنّ الكتابة اللسانية التمهيدية تهتم بموضوعات علم اللغة بإسهاب لكنها لا تُعرض بالكيفية التي يتم بها تناول الموضوعات لسانياً، سواء في إطار المنهج الوصفي أم التاريخي التقابلي²⁵ ما يجعل القارئ في حالة تساءل مستمر وحيرة مربكة لما يجول في خاطره، فكان تعامل الكتابة اللسانية التمهيدية مع تقنيات التحليل اللساني ظل عموماً منحصرًا في تقديم معلومات تعود لبداية هذا القرن في صيغ تتسم بالطابع الأدبي.

أما الولوج إلى عمق المناهج اللسانية باعتبارها أجهزة مفاهيمية لها أدواتها الواصفة التي تضبط عملية التحليل الوصفي للغة معيّنة، فذلك ما لم تتمكن الكتابة اللسانية التمهيدية من القيام بشكل كاف²⁶.

إنّ تقديم اللسانيات إلى القارئ المبتدئ في الكتابة اللسانية التمهيدية يأخذ صورًا متعددة، ومن ثمة برزت العديد من الوظائف التي تحيل إلى أهمية الموضوع المقدم²⁷.

1/ الوظيفة المرجعية/الإحالية:

إنّ إحالة المؤلف على مصادره ومراجعته يكون بهدف كسب ثقة المتلقي واستدراجه إلى خبايا الكتاب، فمراجع الكتاب ومصادره تُكسب الكتاب مصداقية أكبر عند القارئ، لأنّ أهمية المؤلف وقيّمته تتحدد على الأغلب بالمصادر التي اعتمدها مطلقًا في دراسته، ونعني بالمصادر هنا كل ما يعتمد عليه الباحث في دراسته، "وتحدد هذه المصادر الأبحاث التي انطلق منها الباحث أو استند إليها للوصول إلى نتائج معيّنة، ويندرج في هذا السياق إحالات الباحث إلى غيره من الباحثين المشتغلين بنفس القضية، أو العاملين معه في نفس الحقل، أو في حقول معرفية أخرى يكون بحاجة إليها"²⁸.

وتتميز اللسانيات التمهيدية بالعديد من المرجعيات نذكر منها، المرجعية الغربية، والمرجعية المزدوجة:

أ- مرجعية غربية: يتم التركيز هنا على مصدر واحد دون سواه، أو على مجموعة من المصادر الغربية، ويرجع ذلك إلى طبيعة الكتاب والمواضيع التي يعالجها، فإن كانت هذه المواضيع متنوعة كانت المصادر كذلك، أما إذا كان الموضوع يصب في اتجاه واحد فإن المصدر المعتمد يكون واحدًا، وإن كانت المسألة لا تحضر بهذا الشكل المعياري دائمًا.

ب- مرجعية مزدوجة: تظهر ازدواجيتهما في جمعها بين ما هو عربي وما هو غربي، (بين ما هو تراثي وحديث)، وتتعدى ذلك أحيانًا إلى الجمع بين ما هو عام وما هو خاص فأحمد محمد قدور، وهو مؤلف أحد الكتب التمهيدية، يُشير إلى مصادره بالقول: "أما مصادر هذا الكتاب فهي مجموعة من المصادر الأجنبية المترجمة العربية، ومجموعة أخرى من مصادر عربية لغوية متنوعة منها ما هو منحى لسانی، عام متأثر بالدرس الأجنبي، ومنها ما هو ذو منحى لغوي خاص بالعربية وعلومها.

إضافة إلى جملة من الكتب القديمة والحديثة مما كان مجالاً لاستمداد الأفكار الجزئية، أو الأمثلة والشواهد المتعددة، وهناك أيضًا مجموعة من الدوريات العربية التي حوت دراسات مهمة، وكتبا أجنبية موضوعة باللغتين الفرنسية والانجليزية".

2/ الوظيفة الأيديولوجية:

إنّ الوظائف المحددة آنفًا تعود لتألف وتتوحد لخدمة وظيفة أساس هي الوظيفة الأيديولوجية، وهي الوظيفة الاستراتيجية التي تصبُّ في كل قنوات الوظائف الأخرى، وتركز عليها أهداف الكاتب ومقاصده العامة، فالمؤلف يسعى جاهدًا إلى جلب القارئ من خلال التأثير فيه، وحثه على اقتحام فضاءات النص، وكأنه يشير من خلال كلّ ما يقوله إلى القارئ بالقول "ألا يستحق ذلك محاولة القراءة والمناقشة؟".

ويغلب على مقدّمات الكتب اللسانية التمهيدية، كل أشكال الإشادة بمزاياها وتفردّها موضوعًا ومنهجًا، وهي دعوة صريحة إلى الاقبال على قراءة الكتاب وتبني أفكاره.

3/ الوظيفة الإخبارية:

لا تخلو الكتابة اللسانية التمهيدية من وظائف إخبارية تفيدنا كثيرًا في تكوين صورة، ولو عامة، عمّا يطبع اللسانيات داخل ثقافتنا من قضايا وإشكالات منها:

• اختلاف اللسانيين حول تصورهم للبحث اللساني، وهو اختلاف يتعدى حدود الاختلافات القائمة بين المدارس والتوجهات اللسانية، لأنه لو كان كذلك لكان اختلافًا مشروعًا إلى اختلاف في الأصول والمبادئ، وهذا مكن الأشكال.

• تخلف اللسانيات في الثقافة العربية، مقارنة بمثيلاتها في الغرب، وهذا ما يُستنتج من مضمون الكتب اللسانية التمهيدية.

• غياب التنسيق بين اللسانيين داخل القطر الواحد، وداخل الأقطار العربية عمومًا.

• عدم مراعاة القطاعات في مجال اللسانيات، التي خلخلت الكثير من المعطيات علم اللغة التقليدي، ويترب على ذلك عدم مراعاة نقطة اللاعودة التي يبدأ منها علم ما.

• الخلل المنهجي في التحليل، وهذا ما يجعل الكثير من الكتابات التي تُنسب نفسها إلى اللسانيات بعيدة كليًا عن البحث اللساني بمعناه الدقيق.

هذه المعطيات على قدر من أهميتها فإنّها تلوح بإشكالات البحث اللساني في الثقافة الغربية، ومن ثمة فالسؤال المطروح هو: ألا تتحمل الكتابة اللسانية التمهيدية المسؤولية في تخلف البحث اللساني العربي، خصوصًا وأن هذا النوع من الكتابة موكول إليه قبل غيره من أصناف الكتابة اللسانية الأخرى- مهمة إنارة المتلقي العربي-وتزويده بمعرفة سلمية منهجيًا وموضوعًا.

الكتابة اللسانية وأفق انتظار المتلقي:

لم يغفل العرب-قديمًا وحديثًا-موقف المتلقي وذلك التفاعل الذي بينه وبين المبدع، وعلاقتهم الوثيقة التي تسهم في إضفاء شرعية فهم النص وتحديد فضائه، وأضفى ما قدمته الدراسات شاهدًا على ذلك هو أن علم النحو العربي قد أقيم صرحه على دراسة دور المتلقي "فقد استنبطوا قواعدهم باستقراء الأداء الذي يتلقاه المتلقي"²⁹، لأن هذا

الأخير يُعَدُّ عنصرًا رئيسيًا في فهم ما يُنشأ، ولأن النص موجّه إليه كي يفهمه ويتبين دلالاته المختلفة.

وفي خضم الثورة النقدية التي شهدتها اللسانيات العربية، نتيجة التطور المعرفي الهائل، والذي انجر عنه إفرازات منهجية، أثبتت قصور المناهج السياقية عن فك مغالق النص الأدبي وقراءة شفراته التي تتطلب أدوات إجرائية تتجاوز الاهتمام "بالمبدع وبيئته، وعصره، والظروف الاجتماعية والسياسية، والاقتصادية، العلمية، التي أثرت في شخصيته أولاً وفي إنتاجه الأدبي أو الفني ثانياً"³⁰، كما تتجاوز أيضاً معاينة الظروف النفسية التي تؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر في العملية الإبداعية إضافة إلى تجاوز الصلة الجامعة بين المبدع والمجتمع، أو الاهتمام بالمضمون الأيديولوجي في إقصاء تام للشكل ومواطن الجمال في العمل الأدبي"³¹.

"تبلغ العناية بالقارئ ذروتها في جمالية التلقي، ويبدو أن ما أولته الكتابة اللسانية التمهيدية من عناية بمتلقها لا يخرج عن ذلك، لكنّ الملاحظ أنّ عناية جمالية التلقي بقارئها تتأسس على مبدأ التفاعل بين النص والقارئ وعلى ناتج التلقي، وقد يفتح التلقي آفاقاً واسعة لدراسة المؤلفات والنصوص، والكشف عن إمكانياتها وقدراتها على التأثير في القراء من خلال التركيز على الكتاب/ النص، ونوعيته، وأفق الانتظار، ونوعية القارئ وقراءاته، وبذلك يكون التلقي مؤشراً على أنواع التفضيل وضروب الميول التي تظهر استعداد القارئ، أو على أنواع الإخفاق وضروب النفور التي تُظهر استهجانه ونفوره"³².

هذا ويُعد "قارئ الكتابة اللسانية التمهيدية قارئاً ضمنياً بالمعنى الذي حدده إمبرتو إيكو لهذا القارئ، فهو موجود بالنسبة إليه داخل النص، وعلى الباحث أن يستخرجه منه، وهو بالنسبة إلى فولفغانغ آيزر ليس شخصاً خيالياً، مُدرجاً داخل النص، ولكنه دور مكتوب في كل نص، وعلى هذا الأساس يُعنى نقد استجابة القارئ، كما يُقدمه إيزر، بما يحدثه النص في أذهان المتلقين"³³، لا ريب في أن التلقي سمة واصله بين المتباعدين فكراً، وزمناً وعصرًا، ولغةً، ووطنًا، وهذا ما نستشفه مع الكتابة العربية إذ أنّ "تحديد طبيعة المتلقي في الكتابة اللسانية التمهيدية، سواء من حيث نوعية ثقافته

العامة، أو من حيث مستواه المعرفي في مجال البحث اللغوي، يلعب دورًا كبيرًا في مدى تحقيق المهمة الملقاة على هذا الضرب من الكتابة والمتمثلة في تيسير المعرفة وتقريبها من ذهن القارئ العربي، سواء كان قارئًا عاديًا أم له معرفة نسبية باللسانيات، فلكل كتاب كمّا نعرف جمهور معين من القراء، وبدون تحديد لطبيعة الجمهور القارئ من حيث مستواه ووعيه لا نتصور أن عملية التأليف ستكون مجدية³⁴.

إنّ لكل نص أدبي مرجعيات خاصة في إمكان المتلقي المساهمة في نشأتها عبر تمثله للمعنى الكامن داخل النص، وقد حاولت البنيوية من قبل البحث عنها، ولكن بطريقتها الخاصة، ومن خلال مادة اللسان أو اللغة، بينما سعت جمالية التلقي إلى الكشف عن تلك المرجعيات لكن من خلال علاقة قابضة داخل الخطاب نفسه.

"فرغم نجاح بعض المؤلفات اللسانية التمهيدية في تحديد قارئها، فإنّ الملاحظ أن مؤلفات كثيرة لم تهتد إلى تحديد صائب ودقيق لهذا القارئ، حتى وإن كانت مؤلفات تمهيدية تبسيطية وهذا ما نقرأه مثلاً، في مقدمة كتاب علم اللسان: "لا أستطيع أن أتكهن من يكون قارئى الآن، ولا أستطيع أن أخمن أية عينين تتابعان الآن حروف كتابي هذا وكلماته وأسطره، ولا أدري في أية يد وقع، أي يد يافع يتوق للمعرفة، ويتحرق لها، أم يد شاب بدأ يحدد موقعه في حياة مجتمعنا، أم أنّها يد كهل اعتاد على موقف محدد من كل جديد أو قديم"³⁵.

في ظل الحديث عن الكتابة التمهيدية وأفق تلقيها من قبل القارئ العربي، نجد أنها تولي اهتمامًا كبيرًا بالجانب التبساطي التعليمي الذي لعب عاملاً رئيسيًا في "إعطاء القارئ المبتدئ المفاتيح التي تمكنه من فك مُستغلاقات اللسانيات، وتمكينه من مبادئها، وهذا ما تنطق به عناوينها وخطاب مقدماتها، غير أنّ ما يُعبر عنه مَن بعض الكتابات يبقى، في غالبته مغايرًا بل مناقضًا لتلك الأهداف المعلنة، وهذا يخلق فجوة بين ما يُحفز المتلقي على القراءة وبين ما يقرأه فعلاً ممّا يُشوش على أفق انتظاره، فأغلب المؤلفات اللسانية التمهيدية لم تحرص على انسجام عناوينها وخطاب مقدماتها مع متونها، بحيث لا تفي المتون بما جاء في المقدمات، التي تجعل من كل ما تزخر به من آراء، وأفكار، ومشاريع

نظرية فيلقى القارئ نفسه غير مشدود إلى ما يقرأ ممّا يُوجه القراءة نحو أهداف غير معلنة فيتحوّل ذلك إلى إشكالات التلقي³⁶.

لقد توخّت القراءات على الكتابة اللسانية بلوغ تصور ذهني واضح ووضع اليد على المعنى الكامن في الدهاليز العميقة للنص اللساني، إلا أن هذه الرغبة اعترتها كثير من المتاهات والعقبات، ففي البدء كانت القراءة بريئة تلامس المعنى بيسر وسلاسة فتنتقص ثمار النص اليانعة الدانية القطوف وتتلذذ بها أما اليوم فالنص على اختلاف مضمونه صار صعب المراس، لأنه قد غدا فضاء "يحفل بفجوات ومناطق صمت يجب على الناقد أن يملأها وينطقها، وأن وجود الفجوات، والصوامت تعني أن النص غير مكتمل"³⁷.

وهذا الطرح نستشفه من خلال الكتابة اللسانية التمهيدية التي "نلاحظ اختلافاً واضحاً في تصورهما لمستوى القارئ المبتدئ، كما نجد في منطلقاتها النظرية والمنهجية، ويُلاحظ بهذا الخصوص طغيان الاتجاه الوصفي على غيره، من الاتجاهات الأخرى، إذ نكاد نعدم تعريفات للغة من وجهة نظر توليدية مثلاً، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى المكانة التي حظيت بها اللسانيات الوصفية في فترة من الفترات، فطال هذا التأثير مجالات البحث اللغوي، كما طال مجالات أخرى، الأدب والفلسفة، كما يعزى ذلك إلى حداثة الاتجاهات اللسانية الحديثة في ثقافتنا"³⁸.

والجدير بالذكر أنّ اللسانيات التمهيدية لم تخرج من إشكالات عدّة تتعلق بالجانب الموضوعي، إذ أن قارئ الكتابة اللسانية التمهيدية يلاحظ ارتباكاً واضحاً "في تحديد موضوع الدرس اللساني تحديداً دقيقاً وخير دليل على ذلك ما يُقدمه صلاح عبد الصبور شاهين لعلم اللغة والمواضيع التي يدرجها تحته، غير أن ما أدرجه المؤلف تحت اسم "علم اللغة" "وعلم اللغة العام" يحتاج إلى وقفة مطولة لإزالة ما تحمله مثل هذه التحديدات من غموض وخلط، هل تندرج الفيلولوجيا وعلم اللهجات وأسماء الأعلام وأسماء البلدان وعلم الاشتقاق التاريخي تحت مصطلح "linguistiques"، إنها علوم لغوية مساعدة للسانيات، ولكنها ليست بأي حال من الأحوال من اللسانيات العامة، وهذا على الأقل منذ

أن أصبحت اللسانيات إطارًا لغويًا مستقلاً عن غيره من المعارف اللغوية في بداية هذا القرن³⁹.

أما بالنسبة للمواضيع التي يناقشها المؤلف فهي "النظريات المختلفة في أصل اللغة"⁴⁰، والصراع اللغوي واللغة المشتركة، ومقياس الصواب والخطأ في اللغة، والقرآن والعربية، وأزمة اللغة المعاصرة، وجذور الدعوة إلى العامية"⁴¹. في حين حدد مؤلف آخر علم اللسانيات بأنه كل: "أشكال اللغة وألوانها وتغيراتها وتطوراتها وتركز اهتمامها على كل ما يرتبط بموهبة الكلام التي تميز الإنسان عمّا سواه، هذه الموهبة التي تمكن الإنسان من نقل أفكاره باستخدامه أصواتاً معينة، يُحاول اللسانيون فهم هذه الموهبة المكتسبة والطريقة التي وضع بها لغتهم، إنهم يريدون فهم القوانين التي تخضع لها ولادة اللغة وحياتها وموتها، ويهتم بها اللسانيون إلى جانب اللغات الحية باللغات الميتة التي لا تتكلم بها أي جماعة"⁴².

إنّ القضايا التي يتعرض لها المؤلف ويعتبرها من صميم علم اللغة ليست واضحة بما فيه الكفاية، وما أوقعه في الخلط هو عدم تمييزه بين ما يدخل في إطار البحث الفيلولوجي، وما يدخل في إطار البحث اللساني. "ونجد من مؤلفي اللسانيات التمهيدية من يجعل موضوع علم اللغة هو البحث في نشأة اللغة الإنسانية وعلاقة اللغة بالمجتمع الإنساني والنفس البشرية، وآخر مجالات هذا العلم هو حياة اللغة وتطورها وكذلك البحث في صراع اللغات وانقسامها إلى لهجات، وصراع اللهجات مع بعضها، وتكون اللغات المشتركة"⁴³ إن الغاية التعليمية التي تصح بها أغلب الكتابات اللسانية التمهيدية تغيب بشكل ملحوظ عن جُلّ هذه الكتابات، وهو غياب واضح بالمقصود من هذه الغاية مما يُعمق إشكالات التلقي ويزيدها تلقينًا.

تطرح اللسانيات التمهيدية مشكلة محورية تتجلى في إشكالية التأصيل، التي باتت تؤرق الدراسات اللسانية الحديثة، فمن خلال بعض المؤلفات التمهيدية يعمد المؤلف مدافع التأصيل إلى "المقارنة بين التراث اللغوي العربي، ومبادئ الدرس اللساني الحديث،

وهي مقارنة لا تخلو من تعسف وإفراط في التأويل⁴⁴. وفي المقابل نجم عنها أخطاء في تحديد هدفها وذلك لاعتبارين اثنين:⁴⁵

- إما أن يكون متلقيها مُلمًا بالتراث اللغوي، وفي هذه الحال لن يجد داعيًا للرجوع إلى اللسانيات أو تعميق معرفته بها، لأن هذا النوع من المقارنة يجعله يعتقد أن مبادئ اللسانيات هي ما حفظه وعرفه من مبادئ تراثه اللغوي، كما توحى إلى ذلك هذه المقارنات.

- وإما أن يكون قارئًا جاهلاً بالتراث اللغوي فيجد في التطابق الوهمي الذي نحاول تثبته هذه الكتابات سببًا كافيًا لقطع كل أشكال التواصل مع تراثه اللغوي، لأن اللسانيات -كما تقدم له- تكفيه همّ الرجوع إلى المصنفات النحوية.

وفي كلتا الحالتين، فإن الكاتب يخطئ الهدفين، فلا هو أثبت مكانة التراث اللغوي، ولا هو أثبت أهمية اللسانيات، في إطار الإشكال المنهجي ينبغي الحديث عن مصادر الكتاب (وما يلقيه من ثناء)، غير أن التعامل مع المصادر والمراجع لا يتم بطريقة علمية مضبوطة، فبعض اللسانيين يشيرون إلى مصادرهم ومراجعهم بطريقة مُجملة، سواء أكانت عربية أم غربية، قديمة أم حديثة، ولا يُكلفون أنفسهم عناء الإحالة على تلك المراجع والمصادر في متن الدراسة المعمول بها علميًا.

وقعت اللسانيات التمهيدية في مأزق منهجي واضح، ما جعل أغلب المؤلفات اللسانية التمهيدية تنهض على "مبدأ نفي بعضها البعض بأسلوب ذكي ومتأدب، يعتمد فيه المؤلف إلى الإشادة بكتابة ليضمن له حظًا وافرًا من القبول والاستحسان عند جمهور واسع من المتلقين، ولا يكتفي مؤلفو أغلب اللسانيات التمهيدية بذكر محاسن مؤلفاتهم، بل يتصدون للكتب الأخرى بالنقد، وكثيرًا ما يُطال الإقصاء البحث اللساني في ثقافتنا برمته، يقول عبد الواحد الوافي "موضوعات علم اللغة هي موضوع عناية عدد كبير من الأعلام

الباحثين في أمم الغرب، وعلى الرغم من ذلك لم يكتب فيه باللغة العربية مؤلف يُعتد به⁴⁶.

هذا هو الطابع العام الذي يُميز الكتابة اللسانية التمهيدية، والحال أن ما تقوم به هذه الكتابة من نفي وإقصاء كان بالإمكان أن يُستغل بشكل إيجابي ليسهم في تطوير الكتابة اللسانية بالتركيز على ما جدّ في البحث اللساني فيكون التجاوز مشروعًا والنفي مقبولاً، ولاشك أن أفق انتظار القارئ المبتدئ الذي يتلقى هذا النوع من الكتابة سيخيب، وتخيب أفق انتظار القارئ هنا لا يؤدي وظيفة جمالية كما تنص على ذلك مبادئ نظرية التلقي، بل يؤدي وظيفة إبعادية، فإذا كان هذا حال الكتابة اللسانية التمهيدية فالأكيد أن الكتابة المتخصصة، في نظر هذا القارئ، ستكون أدهى، وهذا ما يدعو إلى الابتعاد والنفور والتقزز من اللسانيات، وقطع كل خيوط التواصل معها، فتكون الكتب اللسانية التمهيدية وسيلة للتنفير، والترهيب فتتراح عن وظيفتها الأساس التي تدعو إلى التحفيز والترغيب⁴⁷.

وكنتيجة لما سبق، أدت نظرية القراءة والتلقي دورًا هامًا في تقريب المتلقي العربي من علم جديد، له ارهاصات سابقة على يد علماء كان لهم السبق في فتح عالم مغاير تجاه دراسات جديدة بالبحث والتنقيب، ومن ثمة لا يمكننا إنكار وجود كتابة لسانية تمهيدية نجح أصحابها في خلق تواصل صحيح مع القراء.

الهوامش والإحالات:

ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر بيروت، ط1، 2000، مج2، ص227.¹

الأزهري، تهذيب اللغة، تج: أحمد عبد الرحمن مخيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004، مج7، ص276.²

سورة فصلت، الآية 35.³

الزمخشري: أساس البلاغة، تج: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ج2، ص178.⁴

الفراهيدي، العين، تج: عبد الحميد هندواي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 200، مج4، ص97، 98.⁵

عززي السعدية، التلقي في النقد، البحوث الإعجازية نموذجاً، دار القروين، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006، ص33.⁶

- ⁷ بشرى موسى صالح، نظرية التلقي أصول. وتطبيقات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص32.
- ⁸ المرجع نفسه، ص34.
- ⁹ هانز روبرت ياكوس، جمالية التلقي من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، تر: رشيد نبحدو، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط1، 2004، ص101.
- ¹⁰ محمد بوحسن، نظرية التلقي والنقد الأدبي الحديث، نظرية التلقي إشكالات وتطبيقات، جامعة محمد الخامس، المغرب، د، ط، دت، ج24، ص26.
- ¹¹ محمد مبارك، استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص28.
- ¹² هانز روبرت ياكوس، جمالية التلقي من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، ص113.
- ¹³ عبدالله بن عودة العطري، دراسة في الاستقبال التعاقبي، عالم الكتب الحديث، الأردن، د، ط، 2013، ص44.
- ¹⁴ نبيلة إبراهيم، القارئ في النص: نظرية التأثير والاتصال، مجلة فصول، عدد1، 1984، ص44.
- ¹⁵ صالح زامل: مناهج النقد الأدبي، دراسة لمكونات الفكر النقدي في العراق من 1980/2005، منشورات ضفاف، العراق، ط1، 2004، ص22.
- ¹⁶ عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، دراسة نقدية في النظريات العربية الحديثة، الدار الحديثة للعلوم، منشورات الاختلاف، ط5، 2007، ص147.
- ¹⁷ حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، د، ط، 1996، ص140/139.
- ¹⁸ مصطفى غلفان، اللسانيات العربية وأسئلة المنهج، دارورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص29.
- ¹⁹ فاطمة الهاشمي بكوش، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، ايتراك للنشر، مصر، ط1، 2004، ص16.
- ²⁰ مصطفى غلفان، اللسانيات العربية وأسئلة المنهج، ص29.
- ²¹ حافظ إسماعيل علوي: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط1، 2009، ص108.
- ²² حافظ إسماعيل علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص108.
- ²³ المرجع نفسه، ص25/24.
- ²⁴ عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2007، ج1، ص276/275.
- ²⁵ المرجع نفسه، ص276/275.
- ²⁶ المرجع نفسه، ص276.
- ²⁷ حافظ إسماعيل علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص126.
- ²⁸ مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، ص65.

- ²⁹ مصطفى حميدة، نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، مصر، ط1، 1998، ص21.
- ³⁰ إبراهيم عبد العزيز السمري، اتجاهات النقد الأدبي العربي في القرن العشرين، دار الآفاق العربية القاهرة، مصر، ص24.
- ³¹ المرجع نفسه، ص51.
- ³² حافظ إسماعيل علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص116/117.
- ³³ المرجع نفسه، ص118.
- ³⁴ المرجع نفسه، ص117.
- ³⁵ المرجع نفسه، ص118.
- ³⁶ المرجع نفسه، ص118.
- ³⁷ عبد العزيز حمودة، المرايا المحدثبة من البنيوية إلى التفكيك، مجلة عالم المعرفة، الكويت، العدد232، 1992، ص20.
- ³⁸ حافظ إسماعيل علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص119.
- ³⁹ المرجع نفسه، ص120.
- ⁴⁰ مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، ص110.
- ⁴¹ حافظ إسماعيل علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص120.
- ⁴² المرجع نفسه، ص120.
- ⁴³ المرجع نفسه، ص122.
- ⁴⁴ المرجع نفسه، ص125.
- ⁴⁵ المرجع نفسه، ص125.
- ⁴⁶ المرجع نفسه، ص127.
- ⁴⁷ المرجع نفسه، ص127.